في قلبِ الفوضى التي خلفتْها الحربُ، وبين خيامٍ لا تليقُ بالبشرِ، تصحو امرأةٌ منهكةٌ كلَّ يومٍ على معركةٍ جديدةٍ

ومع سوءِ الأوضاعِ الاقتصاديةِ وغيابِ أيِّ مصدرِ دخلٍ ثابتٍ، يعتمدون على تبرعاتِ المؤسساتِ، بينما يزداد شعورُ زوجِها بالعجزِ ويصبُّ غضبَه عليها، وتزدادُ وتيرةُ تعنيفِها،،

حياةٌ بلا جدارٍ

في قلبِ الفوضى التي خلفتْها الحربُ، وبين خيامٍ لا تليقُ بالبشرِ، تصحو امرأةٌ منهكةٌ كلَّ يومٍ على معركةٍ جديدةٍ، معركةٍ مع جسدٍ يفتكُ به السرطانُ، وأخرى مع واقعٍ يزدادُ قسوةً، وثالثةٍ مع عنفٍ منزليٍّ لم يرحمْ ضعفَها يومًا، أُصيبت باكتئابٍ أنهكَها، وقررت عدمَ الامتثالِ للعلاجِ، فحياتُها كانت مأساةً حقيقةً جعلتْها تكرهُ نفسَها.

تشعر حسناءُ (٤٧ عامًا) من سكانِ أبراجِ جحرِ الديكِ جنوبَ شرقِ غزةَ، ولديها ستةُ أبناءٍ أكبرُهم يبلغُ ٢٣ عامًا وأصغرُهم ثماني سنواتٍ، أن حياتَها تسيرُ نحو نهاياتٍ مغلقةٍ، وأنها تفقدُ قدرتَها على الاحتمالِ كلما حاولت التمسكَ بالأملِ، خاصةً بعد أن اكتشفت فجأةً أنها مصابةٌ بسرطانِ الثديِّ.

تزوجت حسناءُ قبل ثلاثينَ عامًا وهي في الثامنةِ عشرةَ من عمرِها دون ضغطٍ، لكنها لم تكن مهيأةً للأعمالِ المنزليةِ، ما فتح عليها بابًا واسعًا من المشكلاتِ مع والدةِ زوجِها، حيث وجدت نفسَها منذ الأيامِ الأولى للزواجِ هدفًا للإهانةِ والضربِ من زوجِها لمجرّدِ شكوى والدتِه، واصفةً تلك المرحلةَ: "عشتُ خمسَ سنواتٍ في منزلِ عائلةِ زوجي، أُجبرت فيها على قبولِ الإهانةِ والضربِ بسببِ مشاكلي معها، فقد كانت تترصدُ أخطائي مهما كانت بسيطةً."

لم يقتصرِ العنفُ عند زوجِها ووالدتِه، بل امتد ليشملَ والدَه وأخاه اللذين اعتديا عليها أكثرَ من مرةٍ بدعوى عدمِ امتثالِها لأوامرِهم، واتهامِها بالغباءِ لافتقارِها الخبرةَ بالأعمالِ المنزليةِ، وبعد خمسةِ أعوامٍ قررت أن تضعَ حدًا لتلك البيئةِ السامةِ، فاستأجرت منزلًا بعيدًا أملًا بالخلاصِ، لكنها انتقلت إلى دائرةٍ جديدةٍ من الصراعِ: أجارٌ شهريٌّ يخلقُ مشكلاتٍ متكررةً بينها وبين زوجِها، تصلُ غالبًا إلى الضربِ المبرحِ رغم معرفتِه بمرضِها، وظلت تتنقلُ من منزلٍ إلى آخرَ لمدةِ ١٨ عامًا.

ومع أن زوجَها مريضُ قلبٍ ولا يعملُ، وتتحملُ مسؤوليةَ ابنِها البكرِ المريضِ الذي يحتاجُ رعايةً خاصةً، وكانت تعتمدُ على المساعداتِ التي تقدمُ لهم، إلا أنه لم يرأفْ بحالتِها الصحيةِ والنفسيةِ، وحاولت العملَ بشهادةِ الدبلومِ التي تمتلكُها لتعينَ الأسرةَ على دفعِ الإيجارِ، لكنها لم تنجحْ كثيرًا في ذلك.

كان السابعُ من أكتوبرَ ٢٠٢٣ اليومَ الأسوأَ في حياةِ عائلتِها، إذ فقدوا منزلَهم واضطرّوا للنزوحِ مرارًا، وازدادت وتيرةُ العنفِ الجسديِّ واللفظيِّ عليها حتى أصبحت تعيشُ داخل دوامةٍ قاسيةٍ لا تهدأُ، وتقيمُ حسناءُ في خيمةٍ لا تصلحُ لسكنِ مريضٍ وسطَ مدينةِ غزةَ، وتخوضُ يوميًا معركةً مضنيةً مع سرطانِ الثديِّ الذي تفشّى واصلًا إلى الكبدِ، بينما تتعاملُ وحدَها مع نقصِ العلاجِ والرعايةِ والخدماتِ الأساسيةِ.

وأضافت بقلبٍ مثقلٍ: "أكثرُ المشاكلِ بيني وبين زوجي على تعبئةِ المياهِ وتأمينِ الطعامِ، هو لا يحاول مساعدتي بسببِ مرضِهِ، ويعتمدُ علي في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وإن اعترضت يضربني أمام أولادي"، مشيرةً إلى أن الخيمةَ التي تضيقُ بأفرادِ أسرتِها الستةِ لا توفرُ أدنى حدودِ الخصوصيةِ أو الراحةِ، فهم ينامون جنبَ بعضِهم دون مسافاتٍ.

ومع سوءِ الأوضاعِ الاقتصاديةِ وغيابِ أيِّ مصدرِ دخلٍ ثابتٍ، يعتمدون على تبرعاتِ المؤسساتِ، بينما يزداد شعورُ زوجِها بالعجزِ ويصبُّ غضبَه عليها، وتزدادُ وتيرةُ تعنيفِها؛ ليتحول وجودُها إلى صراعٍ مفتوحٍ لا ينتهي "أعيش في مخيمٍ يعافر من أجل توفيرِ الطعامِ والمياهِ، وأنا كمريضةِ سرطانٍ أفرحُ بأقلِّ الأشياءِ رغم كلِّ المرارةِ" وفق تعبيرِها.

ذاتَ يومٍ، وجدت حسناءُ نفسها تتعرضُ للإهانةِ والضربِ أمام أطفالِها، وعلى مسامعِ الجيرانِ الذين حاولوا التدخلَ دون جدوى، فتركوها وحيدةً تواجهُ آلامَها النفسيةَ والجسديةَ، ولا تجدُ الكلماتِ التي تسعفُها، فالحياةُ أجبرتها على واقعٍ تعيسٍ تعيشُه منذ البدايةِ.

ورغم كلِّ هذا، لا تزال تتمسكُ بقدرٍ من الأملِ، وتتمنى السفرَ للعلاجِ خارجَ غزةَ، مشيرةً إلى أن ابنتَها الصغيرةَ ذاتَ الثمانيةِ أعوامٍ هي أكثرُ من يدفعُها للمضيِّ قدمًا، وقالت: "أضمُّ ابنِي المريضَ كثيرًا وأتساءلُ: ماذا سيحدثُ له إن فقدَ والدتَه؟ من سيهتمُّ به؟".

وإلى جانبِ العنفِ الأسريِّ، تواجهُ حسناءُ عنفًا من نوعٍ آخرَ يمارسُه الاحتلالُ؛ جراءَ منعِه دخولَ أدويةِ علاجِ السرطانِ، ما يجعلُ رحلةَ بحثِها عن العلاجِ شبهَ مستحيلةٍ، خاصةً أنها تضطرُّ يوميًا للمراجعةِ في المؤسساتِ والمراكزِ الصحيةِ التي غالبًا ما تكونُ خاليةً من الأدويةِ جراءَ إغلاقِ المعابرِ منذ بدءِ الحربِ الفتّاكةِ.

لا تعلمُ إلى أين تتجهُ لتأمينِ علاجِها أو فرصةٍ للسفرِ، فهي تعيشُ بين ألمِ المرضِ وثقلِ المسؤولياتِ التي تتحملُها وحدَها، دون دعمٍ نفسيٍّ أو مساندةٍ تساعدُها على تجاوزِ كلِّ تلك الأعباءِ، ورغم تضييقِ الحياةِ عليها من كلِّ الجهاتِ، لا تزال تقدمُ أبناءَها على نفسِها، مفضلةً سعادتَهم على حاجتِها للعلاجِ والرعايةِ.

بين جسدٍ ينهكُه السرطانُ وواقعٍ ينهشُه العنفُ، تقفُ حسناءُ بكلِّ ما تبقى لها من قوةٍ كي تحمي أبناءَها، وتتشبثُ ببارقةِ أملٍ قد تحملُ لها علاجًا أو حياةً أكثرَ رحمةً، ورغم ما مرّت به، لا تزال تحاولُ أن تبقى واقفةً من أجل أطفالِها الذين ينتظرون حضنَها كلَّ مساءٍ، ويخشون — مثلَها — يومًا قد لا يجدونَها فيه بينهم.